

ساقى، وتدفعين ذراعيك فتطوقين بهما عنقي، وتجذبين وجهي إليك، ولكنك تشفقين على رقة شفتيك من خشونة خدى فتلثمين أذنى الطويلة — وتعضينها أيضا — فأصرخ، فتثبين إلى قدميك خفيفة مرحة، وتخرجين بعد أن خلفت في صدري انشراحا، وفي قلبي رضى، وفي روحي خفة، وفي نفسي شفوفا، وفي عقلي قوة، وفي أملى بسطة واتساعا، وفي خيالي نشاطا، فأضطجع مرتاحا وأغمض عيني القريرة بحبك ثم أفتحها على:

«صيد حرمناه على إغراقنا فى النزع — والحرمان فى الإغراق»

أى والله، لولا الإغراق ما كان الحرمان. وهل هو إلا الشعور به من الإسراف فى الرغبة واللجاجة فى الطلب؟

بل أفتح العين على جثة صغيرة حملتها بيدي هاتين إلى قبرها، وأنزلتها فيه، ووسدتها التراب بعد أن سويته لها بكفى، ورفعت من بينه الحصى الدقاق ثم انكفأت إلى بيتى جامد العين وعلى شفتى ابتسامة متكلفة وفى فمى يدور قول ابن الرومى:

«لم يخلق الدمع لامرئ عبثا الله أدرى بلوعة الحزن»

وتدخل على زوجتى لتحيينى تحية الصباح، فألتقاها بالبشر والبشاشة، وأهم بأن أحدثها بما كبر فى وهمى قبل لحظة، ولكنى أزجر نفسى وأردها عن التعزى باللغظ. ولو أنى شرعت أحدثها بشيء من ذلك لما فرغت، فما أخلو بنفسى قط إلا رأيتنى أستطيب أن أتخيل فتاتى على كل صورة وكل هيئة وفى كل حالة من حالات الطيش والحكمة، والغضب والسرور، والسخط والرضى، والضحك والبكاء، والعشق والسلوان والنفور والإقبال، والحركة والسكون، واللعب والنط، والقفز، والسباحة ... ويحلو لى أن أنشئ بينى وبينها أحاديث فى كل موضوع من جد وهزل، ويسرنى أن أسمع نكتها، وأرانى أستملح فكاهتها — وأنتحلها فيما أكتب — وأضحك أحيانا بصوت عال، بل أقهقه غير محتشم، فإذا تعجب لى داخل متطفل علىّ فى هذه الخلوة المحببة إلى نفسى رفعت له وجهها كالدرهم المسيح، وهربت بالتبالة من الجواب الذى يطلبه بعينه أو لسانه، وتركته يظن بعقلي ما يشاء. وماذا أقول له؟ فى وسعى أن أكذب، فما لباب الكذب مفتاح، ولكن الكذب ينغص على المتعة التى استفدتها من الحوار الذى كان يدور بينى وبين «حياة».